

## «العقلنة» قبل الارتواء!

محمود حيدر

. . . ولكن لماذا خصصنا هذا العدد من «مدارات غربية» عن الماء؟ . . .

هذا ما طرحناه على أنفسنا من قبل أن يتساءل القارئ عما ذهبنا إليه . . .

والتساؤل، ينطوي على مبررٍ وجيه، لأن كل شيء حاصل في منطقتنا والعالم يدعونا إلى

تناول ما يدخل تحت دائرة الضوء .

صحيح ان شعوب منطقتنا العربية والإسلامية، على قلق كبير مما يجري فوق جغرافياتها من حروب وأزمات، ومواجهات، سوى أنها تظل على قلق مقيم، وربما في صورة أشد عمقاً حيال مواردها المائية. لا يتعلق الأمر هنا فقط بالتقارير والمعلومات عن شح المياه، أو عن لاعقلانية التصرف بها، وإنما أيضاً لأن ما من حروب تقع، وخصوصاً في فضاء الجغرافيا العربية الإسلامية مترامية الأطراف، إلا ويكون العامل المائي هو من أبرز دوافعها .

لم يعد جديداً التذكير بأن مشكلة المياه في بلادنا هي من أكثر، وأعمق، وأخطر المشكلات الجيوستراتيجية. فهي من وجه، اقتصادية تنموية وتدخل في أساس عمليات النهوض، وهي من وجه ثانٍ سياسية استراتيجية، لجهة كونها مصدر أزمات، وحروب، ومساجلات حول مستقبل دول، وشعوب، ومجتمعات الشرق الأوسط الواسع. وثمة من يذهب إلى أنها بصفة أبلغ، أصبحت بعد النفط تحتل مقاماً عالياً في الأمن القومي لدول المنطقة. حتى ان من الخبراء والاستراتيجيين من يفترض، إنه إذا كان ثمة من حروب عالمية، أو إقليمية محتملة، فهي حروب على المياه أو بسببها. وفي خلال الجدل الذي يحدث منذ عقود حول صراعات المنطقة، كانت القضية المائية في مقدم القضايا المؤسسة لنزاعات القرن الواحد والعشرين. حتى ان كثيرين من الباحثين الغربيين - ومنهم الباحثة الأميركية في مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية جويس ستار - راحوا يدعون إلى «عقلنة الماء». إذ بهذه العقلنة في النظر، والتخطيط، والاستخدام، يمكن تفادي تحويل هذه القضية إلى مدعاة لحروب مدمرة .

هل ستصبح المياه بدل النفط هي المادة السريعة للإلتهاب، ثم لتكون سبباً في إحداث

جيولوجيا أمنية واسعة النطاق على مدار المنطقة والعالم؟

هذا هو السؤال المفارق الذي يطرحه الخبراء اليوم فيما تبدو الجغرافيا العربية - الإسلامية

مساحة مفترضة للنزاع على الطاقة والموارد الطبيعية .



إن ما يضاعف من حدة السؤال هو حضور «دولة إسرائيل» في المنطقة . وهو حضور شكّل على الدوام عامل توتير لا متناهي منذ قيامها قبل أكثر من نصف قرن . والذين وصفوا «إسرائيل» بـ «الدولة العطشى» كانوا على يقين من أن وصفاً كهذا ، إنما يعكس تظهيراً للحقيقة ايدولوجية تمكث في أعماق المشروع الصهيوني الاستراتيجي في فلسطين . ولذا لم يكن شيئاً من فراغ أن يمنح زعماء الحركة الصهيونية قضية المياه ، بعداً تقديسياً ، ولا سيما حين جعلوا من نهري النيل والفرات رمزاً لحدود إسرائيل الكبرى .



يضم هذا العدد توليفة من المباحث ، والمقالات ، والتقارير حول الماء وأهميته المركزية في الاجتماع البشري . لكن كلاً منها يرى إلى القضية من زاوية معينة . فسيرى القارئ أن الموضوعات الواردة في هذا العدد ، والموزعة على أبوابه وفقاً لطبيعة ، وهوية كل موضوع ، تتناول قضية المياه على بساط واسع من الخطوط المعرفية : الدينية والفلسفية ، والاسطورية ، والكيميائية ، والاقتصادية ، والسياسية والتنمية وسواها .

على هذا النحو أمكن ، وضمن حدود صفحات هذا العدد من «مدارات غريبة» ، إلقاء بعض الأضواء على الماء في حياة الإنسان .

ولئن كان من كلمة حول هذه القضية الوجودية ، يمكن القول إن المياه تعادل الحياة . بل هي أصلها واستمرارها ، وعلة وجودها . ربما من هذا التأسيس المعرفي ، تنطلق الدعوة إلى وجوب التعاطي مع الشأن المائي بوصفه شأنًا مصيرياً للإنسان المعاصر .



هل ندعو مجدداً إلى «عقلنة الماء»؟

ربما تصحّ الدعوة الآن أكثر من أي آن مضى . فالحروب على الموارد ، ومن أجلها ، لم تعد مجرد افتراضات في الزمن الما بعد حداتي . وإذ يُستهلُّ القرن الحادي والعشرون بسلسلة تحولات مدوية ، وتؤلّف ساحة الشرق الأوسط العربي الإسلامي مدارها الحيوي ، فذلك ما يمنح دعوتنا إلى عقلنة الماء كل مشروعيتها . . .